محمود درويش: "عاشق من فلسطين"..

بقلم رجاء النقاش

محمود درويش (*) شاعر عربي شاب لم يتجاوز الثلاثين من عمره ، وهو واحد من بين حوالي ربع مليون عربي ظلوا مقيمين داخل الارض المحتلة بعد سنة ١٩٤٨ ، عندما تحولت المأساة الفلسطينية الى اعلان رسمي بقيام دولة اسرائيل . وقد ولد محمود درويش في قرية « البروة » ، وهي قرية فلسطينية هدمها اليهود من بين ما هدموا من المدن والقرى العربية ليقيموا مكانها مستعمرات يهودية . والمعلومات التي بين أيدينا عن حياة هذا الشاعر الشاب معلومات قليلة ومحدودة ، ومعظمها مستمد من المرجع الاول والاكبر عن الادب العربي داخل اسرائيل وهو كتاب « أدب المقاومة في فلسطين المحتلة » للناقد والفنان الفلسطيني اللامع غسان كنفاني . وآخر ديوان أصدره محمود درويش هو ديوان « عاشق من فلسطين » الذي صدر في مايو سنة ١٩٦٦ وتسربت منه نسخ قليلة الى خارج اسرائيل ... وها هي « دار الاداب » تقدمه الى القراء العرب اليوم ، وهي انما تقدم بهذا الديوان وثيقة فنية وقومية على غاية من القيمة والخطورة .

وقد يتبادر الى الذهن سؤال هو : كيف تسمح السلطات الاسرائيلية بنشر هذا الشعر الذي يحمل في كل سطر منه تعبيرا ثوريا عنيفا ضد اسرائيل وصانعي اسرائيل ؟.. الحقيقة ان الشاعر محمود درويش ورفاقه من شعراء المقاومة العربية في اسرائيل كانوا يستفيدون من كل ثغرة في النظام الاسرائيلي أو في القانون الاسرائيلي للتعبير عن أنفسهم ، فهناك قانون يسمح لكل مواطن باصدار نشرة واحدة في العام دون رقابة ، ومن خلال هذا القانون وأمثاله من القوانين التي تهدف الى اعطاء واجهة ديمقراطية زائفة لاسرائيل يتحرك العرب في الارض المحتلة ، ولا يتركون فرصة واحدة ممكنة تفلت منهم على الاطلاق . وهكذا تصدر دواوين محمود درويش وغيره من الشعراء ، ولا تكاد هذه الدواوين تصدر حتى تصادرها السلطات الاسرائيلية وتعتقل أصحابها . وقد أثارت الحركة الشعرية الجديدة بالذات ، والتي يقف في طليعتها محمود درويش ، أعصاب السلطات الاسرائيلية ، فصدرت أوامر بمنع نشر الشعر العربي القومي في الصحف العربية ، ثم صدرت بعد ذلك أوامر باغلاق الصحف العربية نفسها ، وعندما لجأ العرب الى اقامة أمسيات شعرية ، يلتقي فيها الجمهور مع الشعراء ، صدرت الاوامر بمنع هذه الامسيات ومعاملتها على انها مظاهرات أو تنظيمات سياسية معادية لاسرائيل .

ولك أن تتصور أي دولة تلك التي تفزع من قصائد الشعراء وأمسيات الشعر بهذه الصورة !

والحقيقة ان الشعر العربي في الارض المحتلة انما يجسد روح المقاومة العربية ويغذيها ، ويشعلها كلما هبت عليها بعض رياح اليأس من النصر القريب ، أو رياح الاستسلام لواقع المأساة ... **لقد أصبح شعر المقاومة عاملا من أقوى العوامل التي تحول بين امتزاج البقية الباقية من العرب في الارض المحتلة بالواقع الذي خلقته المأساة ، أو اعتراف هؤلاء العرب بهذا الواقع على انه واقع نهائي لا يمكن أن يتغير** ... ما دام هناك شعراء يعبرون بهذه القوة الفنية والنفسية والفكرية عن المأساة الفلسطينية ... وأين ؟ في الارض المحتلة نفسها ، فان هذا معناه بكل بساطة : ان القضية الفلسطينية لا تندثر مع مرور الايام بل تزداد اشتعالا .

وينقل الينا شعر المقاومة العربية الذي يكتبه الجيل داخل أسوار اسرائيل روحا ثورية عالية ، تكاد تقول لنا انه لو لم يبق سوى مواطن عربي واحد داخل اسرائيل فسيظل هذا المواطن يدعو الى القضية العادلة ، قضية فلسطين . ولعل هذا الشعر بما فيه من نبض حار صادق يقول لنا اكثر من ذلك : انه لو لم يبق ولا مواطن عربي واحد داخل أسوار اسرائيل ... فلسوف تصرخ الاحجار والاشجار والعصافير وأمواج الشواطىء في حيفا ويافا... بأن الارض هي أرض العرب ، وان تزوير التاريخ بهذه الصورة الرهيبة لا يمكن أن يدوم .

والاتجاه الغالب ـ من الناحية الفنية ـ على شعر المقاومة بين أبناء الجيل العربي الجديد في الارض المحتلة، هو اتجاه « الشعر الجديد » ، الشعر الذي يعتمد على وحدة « التفعيلة » بدلا من وحدة البيت. وبدون أن ندخل في مشاكل فنية حول هذه المدرسة الشعرية الجديدة ، وهي مشاكل لا مجال لها في هذه الدراسة ، ينبغي أن نلاحظ شيئا له أهميته يدلنا عليه هذا الاتجاه الفني عند شعراء المقاومة هو : ان الجيل العربي الجديد من شعراء الارض المحتلة ليس معزولا عن الحركات الفكرية والفنية في الوطن العربي خارج الاسوار الحديدية التي خلقتها

(*) مقدمة ديوان « عاشق من فلسطين » للشاعر محمود درويش ، وسيصدر قريبا عن « دار الاداب » .

اسرائيل لتحول بين العرب في الارض المحتلة وبين أي تأثير قد يأتيهم من الخارج . ومع ذلك فقد التقى شعراء الجيل الجديد في فلسطين بهذا التيار الشعري الذي بدأ يسود وينتصر في الوطن العربي كله ... وأقصد به تيار الشعر الجديد . ولكن كيف تأثر هؤلاء الشعراء السجناء بهذا التيار الوافد اليهم من خارج الاسوار ؟ كيف اتصلت حياتهم الوجدانية والعقلية بالتطورات التي تحدث في الادب العربي والفكر العربي ؟ ذلك ما لا نعرفه بدقة ، ولكن الذي حدث على أي حال هو ان هؤلاءالشعراء الذين ظهروا داخل أسوار اسرائيل في السنوات الاخيرة هم جزء من حركة التجديد الفني في الشعر العربي المعاصر ، الى جانب انهم يمثلون تيارا رائعا من تيارات « أدب المقاومة » ... حيث يقف هؤلاء الشعراء في قلب المحنة ، لا يتفرجون عليها ، ولا يكتبون عنها من الذاكرة ... بل يعيشون في النار ... ويقاومون ويكتبون شعرهم عن دمهم الذي ينزف ، وعن الهم وأملهم معا .

ومحمود درويش يقف في المقدمة بين شعراء المقاومة في فلسطين المحتلة . وهو الان مسجون ، في محاولة جديدة من جانب اسرائيل لتحطيم كل ألوان المقاومة العربية ، وفي مقدمتها حركة المقاومة الادبية والفكرية التي يمثلها هذا الشاعر العربي الشاب وغيره من شعراء الارض المحتلة .

وهناك في العادة شعراء ترتفع قيمتهم في تاريخ بلادهم بفضل مواقفهم النضالية حتى لو كان مستواهم الفني رديئا ومحدود القيمة . ولكن محمود درويش ليس من هؤلاء ، فهو شاعر يمتاز بالاصالة الفنية الى جانب ولائه المطلق لقضية فلسطين : وطنه ومأساته وجرحه الكبير . انه شاعر ترفعه قضيته وفنه معا .

وشاعرية محمود درويش شاعرية ضخمة ، ذات مذاق انساني خصب ، وشعره « نسيج فني » صالح تماما لان يكون « نسيجا عالميا » ، ومن هنا كان محمود درويش من أصلح الشعراء الذين يمكننا أن نترجمهم الى أي لغة عالمية ، ونضمن استجابة حقيقية لشعرهم في أي بيئة انسانية غير عربية ... وسوف تكون قصائد درويش تعبيرا عالميا نابضا بالحياة عن واقع المأساة الفلسطينية .

ولست بمثل هذه الكلمات أهون من قضية العالمية في الادب ، بحيث يمكن أن يصل اليها أي فنان شاب مثل محمود درويش ، ما زال ـ آخر الامر ـ في بداية حياته الفنية ، كما انني ، من ناحية أخرى ، لا أطلق الحديث عن عالمية شعر محمود درويش من باب العاطفة القومية .. فالحقيقة ان ما أعنيه بالعالمية هو أن يكون الفن تعبيرا صادقا مخلصا عن قضية يمكن أن يحسها الانسان في أي مكان فوق الارض ... وهذا هو ما يتجسد في شعر محمود درويش : صدق واخلاص لقضية كبيرة يعبر عنها في بساطة وعمق معا . **ان المستوى العالمي في الفن، ليس لغزا من الالغاز ، فالطريق الى العالمية هو طريق البساطة والايمان والتعبير عن تجربة انسانية عاشها الفنان بأمانة ووجدان متيقظ** . وهذا كله هو ما نحسه ونحن نقرأ محمود درويش ، ومن أجل ذلك فان من الواجب علينا أن نقدم هذا الشعر الى العالم ... ففي هذا الشعر تعبير صادق وجميل عن مأساة الشاعر ، ومأساة وطنه وأهله ... وهو تعبير يمس القلوب ... حتى قلوب هؤلاء الذين لم يسمعوا شيئا عن القضية نفسها ، ولم يعرفوا صفحاتها الدموية الحزينة .

وقصائد محمود درويش تشبه انسانا تحس بأنه يجذبك اليه بقوة منذ أول لقاء معه ، فهو حار متفجر ذو حيوية هائلة ، ليس فيه ذرة من الغفلة أو رائحة من روائح الفتور . انه « ينتفض » ويمتلىء بالرغبة في الحياة والتحرر من المأساة ، سواء كانت هذه المأساة في داخل نفسه ، أم كانت في واقع مجتمعه . ومذاق شعر محمود درويش يذكرني بالمذاق الانساني اللاذع : الحلو والمر معا ، للشاعر الاميركي « والت ويتمان » ، ذلك الفنان الذي جعل الشعر عاصفة من الحب والتمرد .. من الغضب والايمان الذي يشبه ايمان الانبياء ، لانه ايمان لا يتردد ولا يهاب ولا يعرف اليأس .. لقد كان والت ويتمان شاعرا صاحب قوة روحية هادرة ساحرة تملأ شعره ، ولعلنا نحس بهذه القوة عندما نقرأ أبياته التي يقول فيها :

« أنا آتي مع الموسيقى قويا ... مع مزاميري وطبولي . أنا لا أعزف أناشيدي للظافرين فقط ، بل أعزف أيضا للقتلى والمقهورين . اننا نخسر المعارك بنفس الروح التي نكسب بها المعارك . فألف مرحى للذين فشلوا ... للذين غرقت مراكبهم في البحر ... للذين غرقوا هم أنفسهم في البحر » .

ووالت ويتمان هو الذي يقول أيضا :

« أنا رفيق الشعب وصديقه ... كلهم خالدون مثلي . انهم لا يعرفون كم هم خالدون . ولكن أنا أعرف فكل انسان يحب نفسه وممتلكاته . أما أنا .... فأحب هؤلاء الذين كانوا فتيانا والذين يعشقون النساء .. أحب الرجل الابي الذي يشعر كم يؤلم الانسان أن يهان ... أحب الحبيبة الحلوة ... والعانس ... أحب الامهات .. وأمهات الامهات ... أحب الشفاه التي ابتسمت والعيون التي ذرفت الدمع ... أحب الاطفال والذين يلدون الاطفال ... » .

هذه القوة الروحية الانسانية الشاملة الهادرة هي التي تملأ قلب والت ويتمان وشعره ... وشاعرنا العربي الفلسطيني الجريح محمود درويش يحمل شرارة من هذه القوة الروحية في قلبه وشعره معا ... انه حار ، ملتهب العواطف نحو الناس والحياة ... وهو لا يعرف التأملات الباردة الخالية من الروح ، لانه فارس معركة

انسانية يشهر سلاحه ، ويعرض صدره للخطر ، ويدخل مثل هذه المعارك بكل ما يملك من حنان وحب وايمان بالراية التي يحارب وهو يرفعها .

هذا هو ما نحس به منذ اللقاء الاول مع شعر محمود درويش ، قبل أن نتأمل هذا الشعر أو نحاول دراسته ومعرفة أسراره الفنية . ومثل هذه العاطفة الحارة الساخنة قد تعرض الفنان الى سقطة من سقطات الفن الشعري هي : الخطابة والضوضاء الفنية الجوفاء ، ولكن أصالة محمود درويش كفنان ، وأصالة ايمانه بقضيته تحميانه تماما من تلك السقطة الفنية الخطيرة . فهو لا يقترب من هاوية الخطابة ولا يقف حتى على حافتها ، بل يظل مسيطرا على فنه سيطرة كاملة ، ويظل من أجل ذلك مسيطرا على قلوبنا بأصالته وصدقه معا .

فهو مثلا عندما يرد على تلك النغمة السائدة في الادب الاسرائيلي والدعاية الاسرائيلية والتي تحاول أن تقول للعالم : ان العربي همجي ، والعرب عموما هم بشر من الدرجة الثانية ... عندما يرد محمود درويش على تلك « النغمة الدعائية الظالمة » فانه ينتفض من أعماقه وأعماق تجربته العربية الانسانية :

نعم ! عرب
ولا نخجل
ونعرف كيف نمسك قبضة المنجل
وكيف يقاوم الاعزل
ونعرف كيف نبني المصنع العصري
والمنزل
ومستشفى
ومدرسة
وقنبلة
وصاروخا
وموسيقى
ونكتب أجمل الاشعار

ثم يقول في قصيدة أخرى :

سنصنع من مشانقنا
ومن صلبان حاضرنا وماضينا
سلالم للغد الموعود
ثم نصبح : يا رضوان
افتح بابك المقصود

بهذه العاطفة المليئة بالتفاؤل والثقة والاستعداد للنضال والصبر على الجراح الكثيرة التي يتعرض لها العربي ... بمثل هذه العاطفة القوية الحارة ، يواجه محمود درويش وقائع المأساة التي يعيشها مع بقية العرب داخل حدود اسرائيل ، حيث تريد الصهيونية للانسان العربي أن يكفر أولا وقبل كل شيء بنفسه وتراثه وقدرته على المشاركة في الحضارة .

... ولنترك هذا اللقاء العابر مع الشاعر ، حيث تخطفنا قصائده الى دوامة من السحر والحرارة والاعتزاز بالجرح والاصرار على تجاوز اليأس والهزيمة ... لنترك هذا اللقاء حتى نتعرف بصورة أدق على شاعرية محمود درويش من خلال ديوانه « عاشق من فلسطين » .

ان أجمل وأعذب ما في عالم هذا الشاعر هو « رؤيته الانسانية » الخاصة التي تنعكس على بناء قصائده . ان محمود درويش يرى الناس والاشياء بطريقة تختلط فيها كل العناصر . ففي قصيدة واحدة يتحدث عن حبيبته ، وفي مقطع آخر من القصيدة نفسها نجد هذه الحبيبة قد تحولت الى معنى مختلف هو الوطن ، ثم تنقلب الحبيبة الى أخت وأم ... وهكذا فالحب والوطن والحرية والطبيعة كلها معان تختلط ببعضها تمام الاختلاط ، انها ذات ملامح متشابهة ، فالشاعر يرى وطنه من خلال عاطفة الحب الشفافة ، ويرى أرضه من خلال عاطفة الامومة .. الحدود بين الاشياء لم تعد موجودة ... هناك في شعره نوع من « وحدة الوجود » ... نوع من الامتزاج والذوبان في ظل ما كان يسميه المصريون القدماء : « الكل في واحد » ، وهذا الامتزاج الكامل بين الصور والمعاني في رؤية محمود درويش للعالم والذي يتحقق على أجمل صورة في شعره ... يحدث بدون ترتيب أو نظام دقيق ، وان كان يتم بصورة شفافة رقيقة ، لا يضيع معه الانسان وهو يعيش في عالم القصيدة ، فليست قصيدة محمود درويش عالما معتما ، بل هي عالم رقيق مشرق رغم اختلاف عناصره ورؤاه ، وبسبب من هذه الرؤية الانسانية المتميزة التي تمزج بين الاشياء مزجا كاملا تبدو قصيدة محمود درويش « حلما » تغيب فيه الوقائع والحواس ، ليصبح الانسان طليقا بلا حدود . على اننا يجب أن نفرق هنا تفرقة كاملة بين نوعين من الحلم ... النوع الاول هو « الحلم » المبني على الهروب من الواقع الحي ، حيث يكون الحلم تنفيسا عما يختزنه الانسان في حياته اليومية من مشاكل ومشاعر مخنوقة ... والحلم هنا هو نوع من الهروب ، وهو في النهاية ضعف وعجز عن مواجهة الواقع ... ان الانسان الهارب على هذه الصورة هو الانسان الهش الرومانسي العاجز عن مواجهة أعباء الحياة وتجاربها الصعبة ، وفي العادة يكون هذا النوع من الاحلام قاتما معتما ، ويكون الفن الذي يعبر عن مثل هذه الاحلام قاتما معتما كذلك . أما النوع الثاني من الاحلام فهو الحلم الذي يقوم على فيض من المشاعر الحية الكبيرة التي تملأ يقظة الانسان ، وتسيطر عليه سيطرة كاملة ... ان هذه المشاعر تفيض ـ لشدة غناها وحيويتها ـ عن يقظة الانسان فتملأ أحلامه ... وهذا النوع من الاحلام ، هو الهام وحيوية وقوة ، وهو تعبير عن اندماج كبير في الواقع ، ودليل على الامتزاج بين وعي الانسان وعقله الباطن معا . وهذا الحلم المبني على فيض الشعور الهائل ، هو حلم محمود درويش وهو قصيدته في نفس الوقت ... هذا النوع من الحلم يفسر لنا عند محمود درويش « انكسار

المنطق » العادي في قصائده ، لان المنطق العادي يصلح للوقائع الباردة ذات المقدمات والنتائج ، ولكنه لا يصلح للتجارب الروحية الكبيرة الغامرة التي تملأ مشاعر الفنان وتسيطر على يقظته وأحلامه وحواسه جميعا . وان دلت هذه « الرؤية الانسانية » الخاصة عنده على شيء فانما تدل على امتلائه بقضية وطنه : عقليا وعاطفيا ، في الواقع والخيال معا ... انه يرى هذا الوطن بجرحه الكبير في كل شيء ... في الحبيبة والأم والطبيعة ... في كل ما تقع عليه العين ، بل هو يرى هذا الوطن في جميع أحواله النفسية الخاصة ... في العذاب وفي السعادة على السواء .

في قصيدته « عاشق من فلسطين » تواجهنا هذه « الرؤية الخاصة » : فالشاعر يتحدث عن حبيبته ، ولكننا سرعان ما نشعر انه ينتقل من الحبيبة الى الوطن ، ثم يوحد بينهما ، فلا نحس ان الحبيبة شيء والوطن شيء آخر ... انه يقول في أول القصيدة مخاطبا حبيبته :

عيونك شوكة في القلب
توجعني ... وأعبدها
وأحميها من الريح
وأغمدها وراء الليل والاوجاع ... أغمدها
فيشعل جرحها ضوء المصابيح
ويجعل حاضري غدها
أعز علي من روحي
وأنسى ، بعد حين ، في لقاء العين بالعين
بأنا مرة كنا ، وراء الباب ، اثنين

هذا حديث عن الحب ... وهو حب محزون ومجروح ، شأن كل حب في أي وطن محزون ومجروح ، فالعيون ـ في مثل هذا الحب الحزين ـ تتحول الى « شوكة في القلب ... توجعني ... وأعبدها » وهي صورة رائعة ، ولكنها لا يمكن ان تخطر على بال عاشق رومانسي خالي البال يحلم أحلاما وردية ويعيش في ظل سلامة نفسية وسلامة اجتماعية ... انه عاشق يرى في عيون حبيبته ما يذكره بحرمانه ، وبهمه الكبير ، ومسؤوليته العظيمة ... انه عاشق غير عادي ... عاشق من فلسطين . ولكن هذا العاشق بظروفه الخاصة وأحزانه الخاصة لا ينسى انه في نهاية الامر عاشق ، يفهم الهوى ، ويتذوقه ، ويصبح الحبيبان ـ مثل كل عاشقين صادقين ـ شيئا واحدا ... كأنهما لم يكونا في يوم ما : اثنين ... هو وهي .

ولكن هذا الحديث العاطفي عن الحبيبة سرعان ما يختفي لنحس ان وراءه شيئا آخر ، فهذه الحبيبة ليست فتاة عادية ، وانما هي فلسطين نفسها ... او قد تكون في الاصل فتاة عادية ثم تتحول في عينيه الممتلئتين برؤيا بلاده الى فلسطين نفسها ... وهنا يقول محمود بعد مقدمته العاطفية الحزينة :

رأيتك عند باب الكهف ، عند الغار
معلقة على حبل الغسيل ثياب أيتامك
رأيتك في المواقد ... في الشوارع
في الزرائب ... في دم الشمس
رأيتك في أغاني اليتم والبؤس
رأيتك ملء ملح البحر والرمل !
وكنت جميلة كالارض .. كالاطفال .. كالفل
وأقسم :
من رموش العين سوف أخيط منديلا
وأنقش فوقه شعرا لعينيك
واسما حين أسقيه فؤادا ذاب ترتيلا
يمد عرائس الايك
سأكتب جملة أغلى من الشهداء والفل :
« فلسطينية كانت ... ولم تزل » .

وقبل أن نناقش ما في هذا المقطع من رؤى وأفكار، نستطيع أن نلتفت الى تلك الصور الجزئية التي ينسج منها الشاعر قصيدته ... حبل الغسيل ، ثياب الايتام ، المواقد ، الزرائب ... هذه الصور التي تبني لنا « ديكورا شعريا » بديعا لبيئة شعبية أصيلة ، وقد أعطى الشاعر هذه الصورة حياة ونبضا كاملين ... فتحركت الصور من جمودها لتعطينا لوحة انسانية ملآنة بالايحاء الشعري الجميل .

لكننا نتساءل : هذا الحديث الجميل بصوره الشعرية

ـ التتمة على الصفحة ٥٤ ـ

صدر هذا الشهر

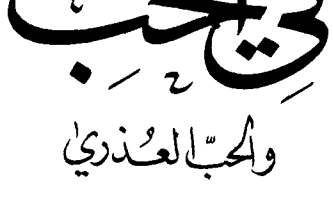

للدكتور صادق جلال العظم

كتاب بمنتهى الطرافة يثبت ان العشاق العذريين كانوا في حقيقتهم فاسقين !

منشورات نزار قباني
ص.ب ٦٢٥٠
بيروت

محمود درويش عاشق من فلسطين

ـ تتمة المنشور على الصفحة ٦ ـ

الحية النابضة بالحياة ... لمن يتوجه به الفنان ؟ انه ولا شك ليس حديث عاشق فلسطيني عادي ، بل هو حديث عاشق من فلسطين ، وعاشق لفلسطين نفسها ، فليس في هذه الصورة القوية كلها ما يناسب عاطفة عادية ، أو حبيبة عادية ... ولعلنا نلاحظ ذلك « الطرب » الحلو العميق الذي يعبر عنه الشاعر وهو يطرز برموش عينيه تلك الجملة الغالية عليه « فلسطينية كانت ... ولم تزل » ... بل نكاد نحس ان طربه كله يتركز حول عبارة « لم تزل » ... فالاستمرار في صفة « الفلسطينية » هو ما يبهجه ويطربه ويشجيه . لان هذه الصفة بالذات هي المطلوب لها أن تختفي وتزول ... ولذلك فالشاعر يجد في بقائها واستمرارها ما يثيره ويسعده ويفتح في وجدانه بابا لآماله كلها .

هذا المزج بين الوطن والحبيبة عند محمود درويش يعطي نفسا عاطفيا حلوا وخصبا لتجاربه الفنية ، ويخلق هذا الحلم المضيء المشحون بالرؤى الحية ، والذي تتحول اليه قصيدة محمود درويش فيمتزج الحب بالوطنية ، وتمتزج صورة الفتاة بصورة الوطن ، ولا يعود باستطاعة أحد أن يفرق بين عاطفة الحب نحو فتاة وعاطفة الحب نحو أرض ووطن .

ولعلنا نجد نفس النغم الحلو الخصب الذي تختلط فيه العاطفة بالوطنية في قول محمود درويش من قصيدته « أغاني الاسير » :

معلقة يا عيون الحبيبة
على حبل نور
تكسر من مقلتين
ألا تعلمين بأني
أسير اثنتين :
جناحاي أنت وحريتي
تنامان خلف الضفاف الغريبة
احبكما ، هكذا توأمين .

انه امتزاج وذوبان كامل بين الحب والحرية ، بين العاطفة والوطنية ، فالحرية هنا حب والحب حرية ... ونحن نلتقي بنفس الرؤية الانسانية عندما يحدثنا الشاعر عن أمه ... اننا لا نكاد نقترب من صورة الام حتى تقفز أمامنا صورة الوطن ... في قصيدته « في انتظار العائدين » يقول :

أصوات أحبابي تشق الريح ، تقتحم الغصون
ـ يا أمنا انتظري أمام الباب ... انا عائدون
هذا زمان لا كما يتخيلون
بمشيئة الملاح تجري الريح
والنيار يغلبه السفين !
ماذا طبخت لنا ؟ فانا عائدون
نهبوا خوابي الزيت ، يا أمي ، وأكياس الطحين
هاتي بقول الحقل ! هاتي العشب !
انا جائعون

مرة أخرى تشدنا تلك الصورة الشعبية الحميمة التي تنشر ظلالها في نفوسنا ، وتكاد توهمنا ان الذي يقول هذا الشعر ليس بشاعر ، بل هو مواطن فلسطيني شعبي ملهم يحكي لنا بقلبه ووجدانه كل رؤاه وتجاربه ... فخوابي الزيت ، وأكياس الطحين ، وبقول الحقل ، والعشب ، هي الصور التي يعيش معها وبها ابن الشعب العادي ، وها هو محمود درويش يتناول هذه الصور بيده السحرية فيحيلها الى شعر جميل رائع .

ولقد كانت هذه الصور الشعبية في نظر البلاغة التقليدية القديمة ، بل وفي نظر بعض أنصار البلاغة الجديدة ، صورا غير قابلة لان يخرج منها أي قطرة من الشعر ... ولكن ها هو محمود درويش يكتشفها من جديد ويعتصرها فنا حيا جميلا مليئا بالسحر والشعر والعذوبة .

ونتساءل هنا أيضا : هل تكون الام في هذه الابيات هي الام العادية ... أم ان هذه الام هي الوطن ؟ انهما معا ، ممتزجان ، ذائبان في كأس واحدة ... بل ان الصورة هنا أقرب الى صورة الوطن منها الى صورة الام الحقيقية ... وهكذا ، فالوطن والام والحبيبة يخضعون جميعا لقانون تخلقه المحنة وتؤكده ، انه قانون : « الكل في واحد » ... فكل شيء معرض لنفس التجربة المرة ، ولنفس الحرمان والخطر ... ولا فرق في ظل هذه الظروف بين أي حبيبة ، وأي أم ، وأي جزء من أرض الوطن .

وما ينطبق على الحبيبة والام ، ينطبق على الاخت : ان محمود درويش عندما يحدثنا عن أخته ، فانه سرعان ما ينسى الاخت الحقيقية ، ويتصور وطنه مجسدا في شخصية هذه الاخت وفي وجهها ...

في قصيدة له بعنوان : « اهديها غزالا » يقول ... والحديث هنا عن أخته :

أبي من أجلها صلى وصام
وجا بأرض الهند والاغريق
الها راكعا لغبار رجليها
وجاع لاجلها في البيد ... أجيالا يشد النوق
وأقسم تحت عينيها
يمين قناعة الخالق بالمخلوق
تنام ، فتحلم اليقظة في عيني مع السهر
فدائي الربيع أنا وعبد نعاس عينيها
وصوفي الحصى والرمل ، والحجر
سأعبدهم ، لتلعب كالملاك ، وظل رجليها

على الدنيا ، صلاة الارض للمطر

هنا أيضا تمتزج صورة الاخت امتزاجا كاملا بالوطن ... فالاخت التي تحتاج كل هذا الحب ، وكل هذه الحماية ، وكل هذا الحنان ... والتي من أجلها يتصوف الشاعر في الرمل والحصى والحجر ... هذه الاخت ، هي أخت محمود درويش ووطنه في نفس الوقت .

وفي شعر محمود درويش ، الى جانب هذا التوحيد والامتزاج والذوبان بين المعاني المختلفة ، ظاهرة أخرى ترتبط بالظاهرة الاولى أشد الارتباط ... هذه الظاهرة الجديدة هي الاحساس « بالاسرة » احساسا عاطفيا متيقظا ، متحفزا على الدوام لمواجهة الخطر الذي يتوقعه الشاعر في كل لحظة ... ان تجربة « الاسرة » في شعر محمود درويش هي تجربة روحية فذة ، وهي — كما تظهر في شعره — تبدو من أعمق وأبرز التجارب الروحية التي عبر عنها شعرنا العربي الجديد . انها تجربة دائمة الحضور في وجدان الشاعر . فهو يتحدث كثيرا عن أمه وأبيه وجده وأخته ، وكل ما يتصل بهذه العناصر البشرية التي نتكون منها الاسرة ماديا وعاطفيا .

ولكن ما هو معنى الاسرة عند محمود درويش ؟.. هل تقتصر على ذلك المعنى الضيق المحدود ؟ هل تدور في حدود الصور العائلية البسيطة المألوفة ؟ ان أول ما يؤديه معنى « الاسرة » في شعر محمود درويش ، هو انه يغذي شعور الفنان بالانتماء ، وهو شعور يحتاج الى تغذية مستمرة دائمة عنده ، وعند أي عربي يعيش في ظل الارهاب الاسرائيلي الذي يريد ان يقطع كل ما للعرب في داخل اسرائيل من جذور ... فالمقطوع من جذوره يمكن أن ينتهي ويذوب في المجتمع الجديد بلا ندم ولا مقاومة ، ومن هنا فان محمود درويش يستحضر في شعره على الدوام كل ما يذكره ويؤكد له انه ينتمي الى جذور أصيلة ، وانه ليس شبحا هائما ، ولا نباتا مقطوعا وملقى به في رمال الصحراء .

والاسرة عند محمود درويش هي أسرة ممزقة تحاول أن تلتئم ، وهي أشبه بجثة أوزوريس التي تحدثنا الاساطير المصرية القديمة انها تمزقت بيد اله الشر « ست » ... ولكن ايزيس الوفية ظلت تبكي وهي تناضل حتى استطاعت أن تعيد الاجزاء المبعثرة من الجثة، وأن تعيد الروح الى الجسد الممزق ، جسد اوزوريس العزيز ، والاسرة كما يحدثنا عنها محمود درويش ، هي هذا الجسد الممزق ، الذي يبدو شعره دموعا حوله وبكاء عليه ونضالا من أجل أن تدب فيه الحياة وتعود اليه الروح . وفكرة الاسرة التي تمزقت هي « معادل فني » حلو وعميق لمأساة فلسطين ... فشعب فلسطين في الرؤية الوجدانية للشاعر هو أسرة تمزقت ، ومحاولة الالتئام بين أفراد الاسرة هي محاولة العودة والرجوع والتوحد بين أفراد شعب فلسطين . والاسرة كما يصورها محمود درويش تبدو أسرة عاطفية ، مليئة بالمشاعر الكبيرة النبيلة ... انها تعيش في ظل حب جارف يسيطر على أفرادها سيطرة كاملة ، ويكفي أن نقرأ هذه الابيات التي تصور حب الشاعر لامه :

أحن الى خبز أمي
وقهوة أمي
ولمسة أمي
وتكبر في الطفولة
يوما على صدر يوم
وأعشق عمري لاني
اذا مت
أخجل من دمع أمي

هذا حب جارف عميق ، بل نوع من التصوف والعبادة ، ومن يستطيع أن ينكر على الشاعر مثل هذه العبادة العاطفية ؟.. من يستطيع أن ينكر عليه كراهية الموت « لانه يخجل من دمع أمه » ؟.. ان هذا النوع من الحب الجارف الذي يصوره محمود درويش ، في عواطفه الخاصة أو في عواطف العائلة الفلسطينية ، هو وحده الطريق الى الالتئام والعودة ودواء الجرح ... فحبه الجارف الكبير لأمه ، حب ايزيس لاوزوريس ، هو نوع من الحب لا بد منه ليكون غذاء للنضال ، وغذاء لقضية مثل قضية شعب أصابه ما أصاب شعب فلسطين . ان هذا الحب الجارف العنيف هو تعويض ورد على الكراهية الجارفة ضد فلسطين وشعب فلسطين ... هذه الكراهية التي يجسدها كيان اسرائيل .

على اننا نكاد نجد معاني عاطفية محددة تدور حول الام والاب والاخت في شعر محمود درويش ، بالاضافة الى ما يؤكده الشاعر دائما من امتزاجهم بمعنى الارض والوطن ، وبالاضافة الى ما يوحي به في شعره من ان ذكر الام والاب والاخت وحتى الجد انما هو نوع من التركيز والتجميع العاطفي الذي يؤكد للشاعر معنى الانتماء ، في بيئة تريد أن تجرده من هذا الانتماء وتحرمه منه ... بالاضافة الى هذا كله فاننا نجد معاني محددة أو شبه محددة للعناصر البشرية التي يشير اليها محمود درويش في شعره ... فالام في قصائده صامتة مثل الارض ، ان تكلمت فبالدموع والنظرات ، ولكنها تملك سيطرة عاطفية لا حدود لها على الاخرين : عن طريق صمتها وحزنها وضعفها . والاخت هي التي تثير عاطفة خاصة ، عاطفة الحنان والرغبة الحارة في حمايتها من أي مكروه ، ووقايتها من أي جرح . ففي قصيدة له يقول عن أخته التي تستثير في نفسه كل عواطف الحماية والحنان ورد الاذى عن وجهها ونفسها ويديها :

حرير شوك أيامي ، على دربي الى غدها
حرير شوك أيامي
وأشهى من عصير المجد ما ألقى لاسعدها

وأنسى في طفولتها عذاب طفولتي الدامي
وأشرب كالعصافير الرضا والحب من يدها

واذا تركنا أخته وأمه ، وبحثنا عن معنى الاب في شعره ، وجدنا الاب عنده صورة ناطقة حية تمثل الحكمة والماضي والتراث ، وهي التي تشد الشاعر الى أرضه وأهله وتفرض عليه ألا يبتعد أو يهرب من ذلك العذاب الذي يعانيه فوق هذه الارض ... ان الاب هو صوت الاجيال الراحلة ، تلك التي عاشت على الارض الفلسطينية جيلا بعد جيل . والاب هنا يتكلم ـ من وراء قصائد محمود درويش الشفافة ـ وهو يملك المعرفة الكاملة بحقيقة المأساة ، فقد عاشها ولم يروها له أحد ... وهو ايضا يملك ثقة كاملة ، تكاد تكون ثقة دينية فوق كل مناقشة عقلية أو رؤى واقعية ، ثقة دينية بأن الارض : لا بد .. لا بد ان تعود .

ربما كان جيل محمود درويش صغيرا جدا عندما وقعت الكارثة فأحس بضجيج ما حدث ولكنه لم يدرك معناه ، أما أبوه فقد رأى كل شيء وعرف كل شيء .

ويظهر دور الاب في شعر محمود درويش ايضا كرد أصيل على عدد من الحالات النفسية التي تنتاب الشاعر وتسيطر عليه ، ومن أهم هذه الحالات : حالة الضيق واللهفة على الهجرة بطريقة ما ... فعندما يصل الشاعر الى حافة اليأس أحيانا ، يتراءى له انه لا يستطيع البقاء هو وأمثاله في هذه الارض التي تعذبه وتضنيه... لا بد أن يتركها ويبحث لنفسه عن مكان آخر وجذور أخرى ، انه يبحث عن الخلاص الفردي ، بعد ان تسرب اليه شك في انتصار قضيته ، وكان الشاعر من قبل يظن ان خلاصه الفردي في خلاص الوطن كله .. هنا يظهر صوت الاب : عميقا واثقا . ان الاب هو شعاع ضوء أو شمعة في ظلام الشك واليأس . والاب ينادي فتاه : لا ترحل ، تمسك بالارض والتراب ، احمل صليبك على كتفيك ، فلقد تحمل أيوب عذابا ما بعده عذاب ثم انتصر على عدوه عندما انتصر على نفسه وعلى يأسه . ان الاب هو الذي يعيد الفتى الحزين الراغب في الرحلة والهجرة الى جذوره الثابتة .

في قصيدة « أبي » يكشف محمود درويش عن هذا الدور الذي يقوم به الاب بالنسبة لجيله من الشباب الذي تفتحت عيناه على الحياة بعد مأساة ١٩٤٨ :

غض طرفا عن القمر
وانحنى يحفر التراب
وصلى لسماء بلا مطر
ونهاني عن السفر

ويقول في القصيدة نفسها :

وأبي قال مرة
حين صلى على حجر :
غض طرفا عن القمر
واحذر البحر ... والسفر

ثم يقول في ختام القصيدة :

وأبي قال مرة :
الذي ما له وطن
ما له في الثرى ضريح
... ونهاني عن السفر

ومن خلال هذا الصوت العميق الاصيل ، صوت الاب ، زرع الفتى جذوره من جديد في أرض المأساة ، أملا في أن يثمر الزرع الجديد نصرا وحرية ووطنا غير حزين وأسرة ملتئمة غير مجروحة ولا ممزقة .

ويجد الشاعر تحت تأثير صوت أبيه شجاعة الاستمرار ، ومواصلة البقاء في الارض ، والسير على الاشواك ، ولذلك فانه ، بناء على الحاح صوت الاب وقوة تأثيره ، يرفض أي سفينة نجاة تريد أن ترحل به وتحمل اليه الخلاص الفردي من الطوفان ... لقد أحس بفضل صوت أبيه ان النجاة من الطوفان هي في مواجهة الطوفان :

يا نوح !
هبني غصن زيتون
ووالدتي ... حمامة
انا صنعنا جنة
كانت نهايتها صناديق القمامة
يا نوح !
لا ترحل بنا
ان الممات هنا سلامة
انا جذور لا تعيش بغير أرض
ولتكن أرضي ... قيامة

فالموت اذن على الارض ، في مواجهة الطوفان ، أهون من الرحيل والابتعاد والسفر والهروب .

هذه هي أسرة محمود درويش : انها شعبه وأهله وسر نضاله وحرارة حبه وحماسه ، وهي القوة الروحية التي تدعوه الى أن يتمسك بأرضه كلما استبد به اليأس وأوشك ان يدفعه الى ان يترك القضية والارض والامل جميعا .

وفي شعر محمود درويش نلتقي بمجموعة كبيرة من الرموز أهمها وأكثرها تكرارا : رمز الصليب ، فهذا الرمز يظهر في معظم قصائد محمود درويش ، وللشاعر في ذلك مبررات فنية وفكرية كبيرة ، أهمها ولا شك : انه يعيش على أرض فلسطين . وفلسطين هي أرض المسيح . وقد اقترنت مأساة المسيح بالصليب الذي أراد اليهود أن يصلبوه عليه ، فالصليب يقترن بفلسطين القديمة ، وهو يقترن ايضا بفلسطين المعاصرة ، لان اليهود يريدون ان يصلبوا فلسطين وكل شيء فيها ويقضوا عليها وعلى أهلها ، ومن حق شاعر يعيش في هذه المأساة حياة يومية ، حيث يتعرض هو وأهله ومواطنوه لمحاولات الصلب كل يوم بلا رحمة ... من حقه أن يعبر عن مأساته برمز الصليب . ويكفي أن نشير في هذا الميدان الى ما

يقوم به اليهود من محاولة لعزل العرب في داخل المدن بطريقة غير كريمة ، فهم يحيطون الاحياء العربية بالاسلاك الشائكة ويطبقون عليهم قوانين عسكرية خاصة، ويمنعونهم من مغادرة أحيائهم ، وفي هذه الاحياء نفسها يكون للعرب مدارسهم الخاصة ومحلاتهم الخاصة وما الى ذلك . والغريب ان هذا هو الاسلوب الذي كانت النازية الالمانية تلجأ اليه في معاملتها لليهود ، وهكذا : نقل اليهود أساليب التعذيب والارهاب النازية ليطبقوها في معاملتهم للعرب ، وهم بذلك تلاميذ حقيقيون للارهاب النازي مهما ادعوا عكس ذلك وذرفوا الدموع على ما أصابهم من اضطهاد النازية واستنزفوا ملايين «الماركات» من جد الالمان تعويضا عن هذا الاضطهاد .

ورمز الصليب على كل حال هو رمز عالمي ، ولا يمكن أن نستنكر هذا الرمز الا في حالة واحدة هي : أن يكون رمزا مصطنعا مفتعلا مبنيا على مجرد الترديد والتقليد ... وهذا هو ما ظهر فعلا عند بعض الشعراء العرب المعاصرين ، حيث كانوا يصطنعون رمز الصليب بمناسبة وبدون مناسبة ، وكان ذلك افتعالا يثير السخط والضيق . أما محمود درويش فيستخدم رمز الصليب استخداما فنيا صحيحا وفي موضعه ... ان رمز الصليب عند هذا الشاعر الشاب هو رمز تبرره مأساة الشاعر ومأساة الوطن ، ويبرره ان هذا الوطن بالذات يستدعي الى العقل والوجدان صورة الصليب أكثر من أي وطن اخر واكثر من أي تجربة وطنية او انسانية اخرى. ان الصليب الذي كان معدا للمسيح قد صلبت عليه فلسطين ، والذين فعلوا ذلك هم أيضا أعداء المسيح : اليهود .

ومحمود درويش يعتبر أحد شعراءخمسة منالجيل العربي الجديد استخدموا رمز الصليب فأحسنوا استخدامه وهم : بدر شاكر السياب ، وأدونيس ، وصلاح عبد الصبور ، وخليل حاوي ... وأخيرا محمود درويش . وفي اعتقادي ان محمود درويش هو أقرب هؤلاء جميعا ـ بحكم تجربته ومأساته ـ الى الاقناع الفني والوجداني عندما يستخدم رمز الصليب وما يتصل به من بقية الصورة المعروفة : تاج الشوك على الرأس ، والمسامير في اليدين . وذلك لان محمود درويش يعيش مأساة كبيرة حقا ، وهي مأساة معادلة لمأساة الصلب وتيجان الشوك والمسامير في اليدين .

يقول محمود درويش في قصيدته « صدى من الغابة » : **من غابة الزيتون**

جاء الصدى
وكنت مصلوبا على النار
أقول للغربان : لا تنهشي
فربما أرجع للدار
وربما تشتي السما ربما
تطفيء هذا الخشب الضاري
أنزل يوما عن صليبي
ترى ...
كيف أعود حافيا ... عاري ؟!

وليست صورة الصليب في شعر محمود درويش قاصرة على هذه القصيدة ، أو على عدد محدود من قصائده ، ولكنها صورة تسيطر على وجدانه وتملأ معظم أشعاره .

ولعل من اكتمال صورة هذا الشاعر أن نقول : انه يتحرك بروح دينية مقاتلة ... ليست روحا صليبية تقوم على اشعال الخلاف بين الاديان وخلق المعارك بين أهل هذه الاديان ، حيث تكون الاديان في العادة تغطية لمصالح أخرى عملية ومادية كما حدث في الحروب الصليبية ضد العرب والمسلمين ، فلقد كانت جيوش الصليبيين في الواقع جيوشا استعمارية تريد المكاسب والغنائم ، ولم تكن ترفع راية الدين الا للتغطيةوالتمويه.. ليست الروح الدينية عند محمود درويش روحا صليبية متعصبة لدين ضد دين ، ولكن روحه الدينية هي روح انسانية شفافة ، ولذلك نجد في شعره محاولة لتفسير الدين تفسيرا نضاليا ، فهو يقول على لسان المسيح بعد أن عرض الشاعر على المسيح شكواه :

أقول لكم ... أماما أيها البشر !

فالمسيحية في وجدانه هي دعوة الى التقدمودعوة الى النضال والوقوف في وجه الالام الكبيرة ولا ... ما جئت أحمل سلاما لهذه الارض وانما جئت أحمل سيفي على الظلم » . وهذا التفسير المناضل نفسه يقدمه الشاعر للاسلام ، فهو يقول على لسان محمد مستوحيا رسالته وتاريخه المليء بالنضال والمقاومة :

تحدّ السجن والسجان
فان حلاوة الايمان
تذيب مرارة الحنظل

ان محمود درويش شاعر كبير يستحق وهو في محنته اليوم يعاني آلام الحياة في أحد سجون اسرائيل أن نجعل منه قضية ذات دوي كبير . انه مقاتل وفنان وصاحب رسالة عادلة ، وهو مليء بالحيوية : ان قيدوا جسده فهو ثائر بروحه ، وان غاب عن الوعي فبالالهام والاحلام يكون كفاحه . ومن النادر أن يعتريه اليأس لانه جعل نفسه جزءا من تراث النضال ، والذي يفعل ذلك لا يخشى اليأس ، فهو يشعر دائما انه واحد منمناضلين آخرين يملأون الارض في عالمنا المعاصر ، أو مناضلين سبقوه ، فليس هو في نظر نفسه أول سجين ، وليس أول من تعرض للتعذيب ... وحتى لو هددوه بالقتل فانه يقول لنفسه : لست أول شهيد . ومثل هذه الروح ترفع المناضل الى مستوى الشهداء الحقيقيين وتؤكد له ولغيره عدالة قضيته وتفاؤله الكبير ، وثقته في انه لا نهاية للنضال العادل الا أن ينطلق الشاعر ويتحرر من كل قيد ... ويغني :

مليون عصفور
على أغصان قلبي
يخلق اللحن المقاتل

هذه هي بعض الخطوط العامة في ملامح محمود درويش : فنانا ومفكرا وشاعر مأساة ... وسوف تزداد شخصية محمود درويش أمامنا وضوحا كلما استطعنا أن نحصل على المزيد من شعره الذي يكشف لنا عن فكره ونفسيته وتطوره الفني .

ولكننا الان بحاجة لان نتساءل : اذا كان محمود درويش يعيش اليوم داخل سجن اسرائيلي ... فلماذا لا نجعل منه قضية يحس بها العالم كله ؟ لماذا لا نقوم بمحاولة عالمية لانقاذ محمود درويش ؟.. ان مثل هذه المحاولة لن تكون ضجة مفتعلة ، فهي تتصل بقضية عادلة لانها قضية شاعر كبير يتعرض لاضطهاد بسبب أدبه وفنه ورأيه ، وهي قضية عادلة من ناحية أخرى لانها تتصل بالقضية الام ... قضية فلسطين . وقد يقول قائل : هل نثور ونغضب من أجل شاعر واحد في أحد سجون اسرائيل ... مهما كانت قيمة هذا الشاعر وأهميته ، ونحن الان أمام محاولة عدوانية لاعتقال ما يقرب من مليون ونصف مليون عربي داخل أسوار اسرائيل بعد عدوان ٥ حزيران (يونيو) سنة ١٩٦٧ ؟ ان هذا الاعتراض يمكن أن يكون معقولا لو اننا اعتبرنا قضية محمود درويش قضية فردية ، ولكن الحقيقة ان اثارة قضيته عالميا سوف تخدم القضية الكبرى ، وسوف تساعد الجهود الاخرى المبذولة في كل مكان من أجل هذه القضية العادلة ، ومن أجل النصر فيها ... هناك جهود تبذل على المستوى السياسي ، وجهود تبذل على مستوى الجماهير العادية في العالم كله ... فلماذا لا تكون هناك محاولة أخرى لتجميع المثقفين من رجال الفكر والفنانين والكتاب حول هذه القضية ؟.. ان المثقفين يلعبون دورا خطيرا الى أبعد الحدود في التأثير على الضمير العالمي سواء كان ذلك التأثير متصلا بالجانب السياسي للقضايا العالمية ، أو متصلا بموقف الرأي العام الدولي من هذه القضايا المختلفة ... فالمثقفون هم في الحقيقة الذين يقودون الضمير العالمي ويؤثرون في أحكامه وفي رؤيته للامور وحكمه عليها . وصوت برتراند راسل الان على سبيل المثال ، هو أقوى من أي صوت اخر في العالم كله ... كل ذلك لان هذا المفكر العظيم الذي تجاوز التسعين من عمره قد رصد نفسه نهائيا لخدمة السلام العالمي ، وللدعوة من أجل نجاح هذه القضية العظيمة العادلة . واذا كان أبناء فيتنام ما زالوا صامدين في وجه العدوان الاميركي ، وما زالوا قادرين على التصدي الصابر الحاسم لهذا العدوان ... فلا شك ان من بين عناصر صمودهم : عطف الرأي العام العالمي عليهم ، وقد كسبوا هذا العطف بجهود متعددة من أهمها وأبرزها تلك المحاكمة التي أقامها برتراند راسل للرئيس الاميركي جونسون ... وفضح فيها التدخل الاميركي في فيتنام . لقد كانت هذه المحاكمة فرصة واسعة وواضحة أمام الرأي العام العالمي ليعرف كل شيء عن هذا العدوان الاميركي ... وليكره كل شيء فيه وينكره .

وهناك أمثلة عديدة أخرى تكشف عن أهمية تحويل مثل هذه القضايا الى قضايا عالمية ... هناك على سبيل المثال قضية الصحفي والمفكر الفرنسي ريجيس دوبريه مؤلف كتاب « ثورة في الثورة » . فكما يقول الاستاذ الياس سحاب في مقال له عن هذا الصحفي المفكر : « ان ريجيس دوبريه السجين في بوليفيا أصبحت قضيته قضية دولية بفضل ملاحقة نفر من أصدقائه لدرجة ان الحكومة البوليفية ألغت قرارها بمنع دوبريه من تسلم الرسائل التي تأتيه من الخارج ، خوفا من نقمة الرأي العام العالمي ، ثم اضطرت لسجنه بدلا من اغتياله ، لان الرأي العام العالمي عرف انه حي ، فأصبح قتله بعد ذلك مدعاة لاثارة ضجة عالمية لا يتحمل آثارها النظام المهلهل في بوليفيا » .

ولا شك ان موت شاعر كبير مثل « فردريكو جارسيا لوركا » في الحرب الاهلية الاسبانية ، كان بقعة دم التصقت بأنصار الاستبداد وأعداء الشعب الاسباني الذين استعانوا بكل الوسائل الارهابية للقضاء على حرية الاسبان وثورتهم ... لقد كان دم « لوركا » تهمة زلزلت سمعة فرانكو وأنصاره خلال الحرب الاهلية الاسبانية ... ولا يزال هذا الدم ـ وسيظل ـ عالقا بتاريخ الذين أسالوه .

وموقف المانيا النازية من الثقافة والمثقفين كان من بين الاسباب التي حطمت سمعة النازية وفضحتها أمام العالم كله ... لقد كانوا يحرقون كتب كبار الفنانين والمفكرين ، وكان أحد المسؤولين النازيين يعلن بجرأة وصفاقة تلك العبارة المشهورة : « كلما سمعت كلمة ثقافة تحسست مسدسي » ، ولم يكن النازيون يشعرون بالخجل من مثل هذه الكلمات والمواقف أيام قوتهم وسيطرتهم وتصورهم الجنوني : ان صفحات التاريخ تمر تحت أقدامهم ، وانهم يستطيعون ان يفعلوا ما شاءوا لانهم سوف يكتبون تاريخ البشرية كلها من جديد على هواهم .

ولكن النازية انهارت وسقطت بأخطائها في حق الانسان والحضارة ، وعلى رأس هذه الاخطاء بل والجرائم : موقف النازية من الثقافة والفن والفكر .

وقد أصبح من الضروري الان ، بعد أن قطعنا هذه المرحلة من نضالنا الطويل ، الا نرفض التعلم من أعدائنا ما دام هناك ما يجب أن نتعلمه .

ففي الحركة الصهيونية ظاهرة لها مغزاها ـ وهذا ما ينبغي أن نتعلمه ـ وهي ان هذه الحركة قد اعتمدت اعتمادا جوهريا على الدعوة الادبية والدعوة الثقافية عموما . فقد أبرز الصهيونيون ابرازا لا حد له : موقف النازية من الكتاب اليهود والفنانين اليهود ... لقد أبرزوا على سبيل المثال ما فعلته بمؤلفات « كافكا » حيث أحرقها النازيون ومنعوا قراءتها وتداولها وأصبحت من المحرمات بالنسبة للالمان ، كما أبرزت الحركة الصهيونية موقف النازية من كتابات توماس مان وستيفان

زفايج وغيرهما من الكتاب اليهود ، وكان لهذه المواقف التي اتخذتها النازية دورها المزدوج ، فهي من ناحية قد أثارت السخط على موقف النازية من اليهود ، ومن ناحية أخرى أثارت نوعا من العطف على اليهود بطريقة دفعت الصهيونية الى استغلال هذا العطف ومحاولة استثماره في الميادين السياسية والاقتصادية .

الى جانب ذلك كله فقد تعود الصهيونيون الاهتمام الواسع بالادب الذي كتب عنهم وعن قضيتهم ، مثلما فعلوا مع قصة « اكسودس » والتي كتبها « ليون أوريس » ... فقد تحولت هذه القصة الى فيلم تكلف الكثير وأثيرت حوله ضجة دعائية ضخمة ، كما طبعت من هذه القصة طبعات عديدة ، وساعد الصهيونيون على انتشار ملايين النسخ منها بصورة هائلة في العالم كله . وفعل اليهود ذلك أيضا في رواية « دافيد الروي » التي كتبها السياسي الانكليزي دزرائيلي والذي كان واحدا من أبرز رؤساء الوزارات الانكليزية في القرن الماضي... لقد روج الصهيونيون لهذه النماذج الادبية وغيرها ترويجا ماديا ومعنويا لا حد له .

هذا هو ما يقوم به الصهيونيون نحو قضيتهم ... انهم يستغلون كل ما يمكن ان يؤثر في الضمير العالمي وذلك لخدمة أهدافهم ، وليس هناك أي افتعال أو بعد عن حقائق التاريخ عندما نقول : ان الحركة الصهيونية من الناحية السياسية قد سبقتها بوقت طويل حركة أدبية واسعة تدعو اليها وتمهد الطريق أمامها وتنشر القيم التي تؤمن بها ... وقد صاحبت هذه الحركة الادبية قيام اسرائيل واستمرت معها ، وما زالت الحركة الصهيونية تحاول التأثير على مراكز القوة الثقافية في العالم كله ، وكان آخر هذه المحاولات ذلك النصر الذي حققته عندما تقرر منح جائزة نوبل عام ١٩٦٧ لاديب اسرائيلي ، ليس معدودا على الاطلاق من كبار أدباء العصر ، وقد حصل هذا الاديب واسمه « يوسف عجنون » على الجائزة تحت ضغط صهيوني على لجنة جائزة نوبل التي أثبتت مرارا انها قابلة للتأثير ، وانها خاضعة للنفوذ السياسي الغربي ، وليست لجنة حرة تعتمد على مبادىء أمينة وصادقة في مواقفها المختلفة .

هذا هو ما تفعله الحركة الصهيونية بقضيتها التي لا تقوم على العدل ولا على الحق ... فماذا ينبغي علينا أن نفعله ، نحن أصحاب القضية العادلة الحقيقية البعيدة عن التزييف او التزوير التاريخي ؟ ان من واجبنا ألا نترك فرصة سليمة دون استغلالها لكسب العالم معنا .

وهذه فرصة لنا ولقضيتنا ولا شك ، وليست فرصة لاعدائنا ... أن تضطهد اسرائيل شاعرا موهوبا أصيلا مثل محمود درويش وأن تصادر حركة أدبية كاملة هي حركة شعراء المقاومة في الارض المحتلة ، هذه الحركة التي تسللت الينا بعض نماذجها الشعرية من وراء الاسوار ، وبرزت فيها أسماء أخرى الى جانب محمود درويش مثل : سميح القاسم ، وتوفيق زياد ، وحبيب قهوجي .

ان باستطاعتنا بل ومن واجبنا ان نجعل اعتقال محمود درويش وتعذيبه في أسرائيل قضية مشتعلة في أوساط المثقفين في شتى أنحاء العالم . وذلك بالطبع يقتضي منا أن نبذل جهدا في ترجمة قصائد هذا الشاعر الموهوب ، ومن الواضح ـ كما قلت في البداية ـ انها قصائد ذات مذاق انساني يمكن ان يحس بها الناس في أي مكان وأي بيئة . وهذه المهمة يجب أن تتبناها مؤسساتنا الثقافية المختلفة ، فعن طريق اتحاد كتاب فلسطين ، واتحاد الادباء العرب ، والمجلس الاعلى للاداب والفنون بالقاهرة ، والمكتب الدائم لكتاب اسيا وافريقيا . عن طريق هذه المؤسسات الثقافية كلها يجب أن نترجم قصائد محمود درويش وننشرها في أنحاء العالم ، خاصة وان هذه المؤسسات الثقافية العربية كلها ذات اتصالات عالمية واسعة يمكن عن طريقها أن تتحول قضية محمود درويش الى قضية تهز ضمير المثقفين في كل انحاء العالم . ومن الممكن بالطبع أن تساهم منظمة تحرير فلسطين في تبني قضية هذا الشاعر والمساعدة على توضيحها وشرحها بين المثقفين عن طريق مكاتب المنظمة في العالم كله .

ومن خلال قضية محمود درويش يمكن أن يزداد المثقفون العالميون فهما للقضية الفلسطينية وقدرة على كشف حقيقة اسرائيل .

ولقد كان من الضروري أن يسبق ذلك كله محاولة لنشر اشعار محمود درويش بين المواطنين العرب ، فمن البديهي ان ما نريد ان نقنع به الرأي العام العالمي يجب أن نكون نحن مقتنعين به أولا ، وهذه هي المحاولة التي تبدأها « دار الاداب » اليوم حيث تقدم النص الكامل لديوان « عاشق من فلسطين » الى القراء العرب (*) .

المهم أن نأخذ القضية بصورة جادة وأن نعتبرها قضية ساخنة لا تحتمل التأجيل والكسل ، والمهم ايضا الا تكون هذه السطور عند الذين يقتنعون بها في مؤسساتنا الثقافية المختلفة مجرد كلام في الهواء .

لان من أبأس عيوبنا أن نتحمس بسرعة ثم ينطفىء الحماس ويتحول الى أمنيات وذكريات ، وكلمات لا معنى لها ، ثم تضيع كل هذه القضايا البسيطة الواضحة التي يمكننا من خلالها ـ رغم بساطتها ـ أن نصل بصوتنا الى ضمير الدنيا كلها ونؤثر في هذا الضمير ... كل ذلك نستطيع أن نحققه من خلال لوحة جميلة أو قطعة موسيقية أو قصيدة أو قضية شاعر سجين مثل محمود درويش .

والقضايا الكبرى لا تكسبها معارك الحرب فقط... وانما تكسبها معارك السلام أيضا ... ربما قبل معارك الحرب . والذي يعرف كيف يكسب السلام هو وحده الذي يستطيع أن يكسب الحرب .

القاهرة — رجاء النقاش

(*) وسيتضمن هذا النص كذلك جميع القصائد الجديدة التي نظمها الشاعر محمود درويش بعد نكسة ٥ حزيران وأرسلها من سجنه الى الاستاذ غسان كنفاني في بيروت . وسيقدم ريع هذا الكتاب لابناء الشهداء الفلسطينيين .